بين الفكر الوضعي والفكر الإسلامي

الأستاذ الدكتور/ يوسف إبراهيم ـ أستاذ الاقتصاد الإسلامي، بجامعة الأزهر ـ كثيراً ما نسمع وصف الأفكار التي أنتجتها عقول البشر بأنها أفكار وضعية، ونسمع المهتمين بالفكر الإسلامي يصفون الأفكار التي أنتجتها الحضارة الغربية في الميدان الاقتصادي بأنها أفكار وضعية، وترى المتحدثين عن البنوك الإسلامية يصفون البنوك الأخرى التي تتعامل بالفائدة، بأنها بنوك وضعية أو تقليدية، في مقابلة البنوك الإسلامية. فما هي سمات الفكر الوضعي، وما هي سمات الفكر الإسلامي؟ وما هي الفروق بين الفكرين؟

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، وبعد: فمما اصطلح عليه المهتمون بالدراسات الإسلامية بصفة عامة، والمهتمون بالدراسات الاقتصادية الإسلامية بصفة خاصة، إطلاق تعبير «الفكر الوضعي» على غير ما جاء به الإسلام. فكل ما تقول به المدارس الاقتصادية على اختلاف مشاربها، وكل ما نادي به أصحاب النظريات والمذاهب، هو لدينا «فكر وضعي»، أي فكر وضعه البشر، ولا يتصل بنسب، أو يمت بسبب إلى تشريع الله تعالى الذي شرعه للبشر، منذ أن بدأت رسالات الله تعالى تترى حتى مجيء الرسالة المحمدية التي ختم الله بها الرسالات.

وفي مقابل هذا الفكر، يوجد الفكر الإسلامي، وهو الفكر الذي يهتدي بهدي الله تعالى. الذي تضمنه القرآن الكريم، والسنة المطهرة. ففهم المسلمين لهذا الهدي، واجتهادهم المبنى عليه، وتنظيماتهم التي أقاموها لتطبيقه، تمثل الفكر الإسلامي، الذي يقابل ما نطلق عليه «الفكر الوضعي».

والفكر الوضعي ـ كما هو واضح من انقطاع صلته بهدى الله تعالى وتشريعه ـ مرجعه الأول والأخير، هو العقل البشري، بما يتسم به ذلك العقل من قصور، وبما عليه من خضوع للبيئة التي تشكله، فيصدر عنها، دون أن توجد عليه قيود تحميه، أو ضوابط تهديه. ومن هنا فإن هذا الفكر وهذا هو مصدره ومرجعه، يمكن أن يقول بالشيء ونقيضه، وينقلب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، فيمجد المشروع الخاص مرة، ويلعنه مرة أخرى، ويدافع عن الطبقة العاملة فترة، ويطحنها فترة أخرى، ويدعو إلى الحرية والمساواة في مكان، ويقيم التفرقة العنصرية في مكان آخر ويحقق حقوق الإنسان في مكان ويغتالها في مكان آخر. وفي كل موقف من هذه المواقف يقدم التبريرات لما يؤمن به، ويقيم الحجج على صحة ما يعتقد. وقد يكون هذا الفكر مصيباً في بعض مواقفه، لكنه بالقطع مخطئ في بعضها الآخر، وتعيش المجتمعات في ظله حقولاً للتجارب ما إن تتأكد من صواب فكرة أو سلامة موقف، حتى تكتشف أنها كانت مخدوعة بهذه الفكرة، أو مخطئة في هذا الموقف، وعليها أن تؤقلم نفسها للعيش في ظل فكرة جديدة، وموقف مغاير. وهكذا...

وليس هذا الموقف بغريب، طالما أن الفكر الوضعي يتسم بسمات العقل البشري التي المحنا إليها، بل إن استقرار هذا الفكر على مبادئ ثابتة، ووصوله إلى أحكام مستقرة في المسائل الاجتماعية، يعتبر مخالفة للعقل الذي يرجع إليه هذا الفكر، وإذا أراد هذا الفكر أن يضفى على بعض ما وصل إليه ـ في هذا الميدان ـ طابع الدوام والاستمرار، وادعاء الصلاحية لكل زمان ومكان، كما هو الحال في الجانب الشيوعي من هذا الفكر، إذا حاول ذلك، فإنه يقع في التناقض العقلي الذي لا يقبله العقلاء. فالأصل في الفكر الوضعي أنه محاولات واجتهادات بشرية لاتخاذ مواقف من القضايا

المختلفة التي تنشأ بحكم سير المجتمعات، وليس لهذه المواقف، وتلك الاجتهادات من ضوابط تسددها، أو أصول مقطوع بصحتها ترتكن إليها فتهديها؛ ومن ثم فلابد من تغيرها كلما تغيرت الظروف التي أنبتتها.

وهذا هو الفارق الجوهري بين الفكر الوضعي، الذي هذه صفته، والفكر الإسلامي، الذي يمتلك هذه الضوابط المسددة، ولديه تلك الأصول الهادية. ومن ثم فإن العقل الإسلامي لا يضرب في بيداء، ولا يتخبط في ظلماء، وإنما يبحث وينقب، ويجتهد ويستنبط، ويبتكر وينظم، ويؤصل وينظر، تسدده تلك الأصول الثابتة، وتقيمه على الحق إرشادات إلهية آتية من حكيم حميد، فلا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ومن ثم تأتي اجتهادات العقل المسلم، بعيدة عن التناقض. فلا يتعارض بعضها مع بعض، وإنما تسير في اتجاه مسدد، نحو تحقيق المصالح وجلب المنافع، ودفع المفاسد، ورعاية مصالح الفرد والجماعة، وتحقيق النفع للجيل الحاضر وللأجيال المقبلة، لا يميلها الهوى إلى فريق ضد فريق، ولا يجعلها قصر النظر تحابى الجيل الحاضر على حساب الأجيال المقبلة، ولا تتحيز لأبيض ضد أحمر، ولا فرق لديها بين ساكن العاصمة والقاطن على ذروة جبل في قلب الصحراء.

وفي الميدان الاقتصادي، والذي فتن الناس فيه بإنجازات الفكر الوضعي، بما أقام من تنظيمات، وأرسى فيه من نظريات، على أساسها بني الصرح الضخم للنظام الاقتصادي العالمي الذي نشاهده ونعيش نتائجهُ الحسن منها والسيئ على السواء، في هذا الميدان، ستكون لنا مع العديد من المقولات والمواقف الاقتصادية التي تَفَتَّق عنها العقل البشري، وتكوَّن منها الفكر الوضعي، وقفات، حيث نقارن هذه المقولات والمواقف بتلك التي جادت بها قرائح المسلمين، في ظل الضوابط الهادية التي تقي

العقل الإسلامي من الانحراف، وتهديه سواء السبيل وسنرى فروقاً جزئية في عدد من القضايا الواقعية والتي تمثل بسطا للفرق الجوهري الذي يفصل بين الفكرين ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] والحديث متصل بعون الله تعالى ومشيئته.